Lark Journal (2023) 50 (2)

وقائع المؤتمر العلمي السابع تحت شعار (العلوم الانسانية بين التحديات الراهنة والافاق المستقبلية) الذي اقامته كلية الآداب في جامعة واسط بتاريخ 2023/7/1

ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:

Prof. Dr. Fadel Jaber Dahi
Dr.Fawzi Khairy Kazem
University: Wasit University
College: College of Education for Humanities
Imam Al-Kadhim College of Islamic
Email: fawzy1000@gmail.com

Keywords:
religious interpretation, Ibn Hajar, metaphysical interpretation, historical events.

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 20 Apr 2023
Accepted 8 May 2023
Available online 1Jul 2023

The religious interpretation of history in the book Anbaa al-Ghamr fi Anbaa al-Umar by Ibn Hajar al-Asqalani

A B S T R U C T

The research talks about one of the most important approaches used by most Muslim historians - throughout the ages - in their historical writings to interpret some of the incidents that occurred at the time, which is the approach of religious interpretation of historical events. The unseen for some of the events of history, takes them out of their natural framework to another framework, so that the role of humans in their manufacture is completely absent. It seems that this was due to the religious belief of these historians that the religious interpretation enters as a direct cause like these events, but rather it is the maker of them without anyone else. One of the most prominent historians who took this approach is the historian (Ibn Hajar Al-Asqalani, d. In addition to the importance of studying history objectively away from any other influences, especially dogmatic ones, due to the great importance of history in the life of societies because of its great benefit to knowing the experiences of previous nations and trying to benefit from those experiences.

From here and due to the importance of this topic, we decided to take it as a topic for our research, which we named "The Religious Interpretation of History in the Book of Anbaa Al-Ghamr fi Abaa Al-Omar by Ibn Hajar Al-Asqalani". We have used the descriptive analytical approach in tracking the events in which the historian presented his religious interpretations of the historicity and their narration, analysis, and response to them according to the nature of these events, which we divided into incidents of a doctrinal nature, and incidents of a political, military and natural nature.

© 2023 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/

التفسير الديني للتاريخ في كتاب إنباء الغُمر في أنباء العُمر لابن حجر العسقلاني

أ.د. فاضل جابر ضاحي / جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية
د. فوزي خيري كاظم/كلية الإمام الكاظم للعلوم الإسلامية/ أقسام واسط

الخلاصة:

يتحدث البحث عن واحد من أهم المناهج التي استخدمها أغلب المؤرخين المسلمين – على مرّ العصور – في كتاباتهم التاريخية لتفسير بعض الحوادث التي وقعت آنذاك، وهو منهج التفسير الديني للأحداث التاريخية، فقد نهج بعض المؤرخين في تقديم صورة مغايرة لطبيعة السنن التاريخية المحركة للأحداث، تمثلت بالتفسير الغيبي لبعض أحداث التاريخ بما يُخرجها من إطارها الطبيعي إلى إطار آخر بحيث ينتفي دور البشر تماماً في صناعتها. ويبدو إن ذلك كان بسبب الاعتقاد الديني عند هؤلاء المؤرخين بأن التفسير الديني يدخل كسبب مباشر في طبيعة تلك الأحداث، بل هو الصانع لها دون غيره. ومن أبرز المؤرخين الذين اتخذوا هذا المنهج هو المؤرخ (ابن حجر العسقلاني ت 852هـ) حيث كان الغالب في مؤلفاته استخدامه لهذا المنهج في تفسير الأحداث التاريخية. فضلاً عن أهمية دراسة التاريخ دراسة موضوعية بعيدة عن أي من التأثيرات الأخرى لاسيما العقدية، وذلك للأهمية الكبيرة للتاريخ في حياة المجتمعات لما له من فائدة كبيرة لمعرفة تجارب الأمم السابقة ومحاولة الاستفادة منن تلك التجارب.

من هنا ولأهمية هذا الموضوع فقد ارتأينا أن نتخذه كموضوع لبحثنا هذا الذي وسمناه بـ" التفسير الديني للتاريخ في كتاب إنباء الغُمر في أنباء العُمر لابن حجر العسقلاني". وقد استخدمنا المنهج الوصفي التحليلي في تتبع الأحداث التي قدّم فيها المؤرخ تفسيراته الدينية للتاريخية وإيرادها وتحليلها والرد عليها بحسب طبيعة هذه الأحداث والتي قسمناها إلى حوادث ذات طابع عقائدي، وحوادث ذات طابع سياسي، وطابع عسكري، وطبيعي.

الكلمات المفتاحية: التفسير الديني، ابن حجر، التفسير الغيبي، الحوادث التاريخية، أنباء الغمر.

المقدمة

يُعد التفسير الديني من الاتجاهات المهمة التي بدأ ظهورها مع تنامي الإسلام وظهوره وتكامل رؤيته بالنسبة لطبيعة الأحداث المتناولة، لاسيما التي ذكرها القرآن الكريم من قصص متنوعة طرحها للناس ليتعظوا بها متمماً بذلك النهج الإرشادي الذي أراده طريقاً مستقيماً للناس.

فلظهور الإسلام، حدث تطور في الفكر التاريخي عند العرب عموماً من حيث الموضوع والمنهج والرؤية، لأن الإسلام على الرغم من كونه ديناً يتصف بالروحية والإلزام الأخلاقي، إلا أنه قدّم تصوراً يقيم وزناً للحياة الدنيوية والأفعال البشرية في عمران الأرض كونه خليفة الله فيها، والأداة التي تحقق المشروع الإلهي الذي خلقه من أجله.

لذا فقد تناول في نصوصه الشرعية كل القوانين الطبيعية التي تقوم عليها الحياة بما فيها القوانين الحتمية والحاكمة، بما يؤكد حقيقة الرؤية الإسلامية التي تجعل من الإنسان صانعاً للتاريخ، أو على الأقل من بين صناعه.

لكن نهج بعض المؤرخين في تقديم صورة مغايرة لطبيعة السنن التاريخية المحركة للأحداث، قدّمت منهجاً آخر في إظهار هذه الرؤية تمثلت بالتفسير الغيبي لبعض أحداث التاريخ بما يخرجها من إطارها الطبيعي إلى إطارٍ آخر، بحيث ينتفي دور البشر تماماً في صناعتها، وكأن الموضوع في صناعة الحدث غيبي ذا طابع ديني بحت. فيتخذون منهجاً آخر في تقديم صورة تأويلية للأحداث التاريخية تنتهي عند الغيب الذي أراد لهذا الحدث أو ذاك أن يكون منطلقاً من حتمية جبرية ذات أساس عقدي.

ومن أبز المؤرخين الذين قدموا مثل هذا المنهج التفسيري الغيبي المؤرخ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (852هـ) الذي طغى عليه هذا المنهج في معظم مؤلفاته. وسنحاول في هذه الأوراق القليلة تبيان ذلك المنهج في أحد تلك المؤلفات التي اخترناها وهو كتاب (أنباء الغمر بأبناء العمر). وقد اقتضت ضرورة البحث أن نبدأ بمقدمة بسيطة عن حياة ابن حجر تبيّن الجانب الشخصي والعلمي من حياته، ثم دراسة بسيطة لمنهج وموارد الكتاب، وبعدها نعرّج على موضوعنا الأساس.

السيرة الشخصية والعلمية للمؤرخ ابن حجر العسقلاني

شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، ولد سنة 773هـ في القاهرة، ونشأ وترعرع فيها. ولع بالأدب والشعر في بدايات حياته، ثم انصبّ اهتمامه على الحديث فأقبل ينتهل منه بهمة عالية حتى إنه رحل في سبيل طلبه إلى اليمن والحجاز والشام وغيرها لسماعه من مشايخ الحديث آنذاك (الزركلي، 1980، ج1، ص178) . وبرع فيه حتى ذاع صيته وقصده الناس من كل حدبٍ وصوب لينهلوا منه (السيوطي، 1967، ج1، ص363).

ولم يقتصر طلبه للعلم على الحديث، وإنما اشتهر بعلوم أخرى، وألف فيها مصنفاتٍ عدة، فصنّف في علوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه، والتاريخ، وغير ذلك. ومن أشهر هذه المؤلفات: فتح الباري في شرح صحيح

البخاري، وتقريب التهذيب، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ولسان الميزان، والإصابة في تمييز الصحابة، وغيرها. وقد بلغت من الكثرة أنها جاوزت المائتين (كحالة، د.ت، ج2، ص20).

ومن أبز شيوخه الذين تتلمذ عليهم: سراج الدين البلقيني (ت 805هـ)، وابن الملقن (ت 804هـ)، والأبناسي (ت 802هـ)، وابن القطان المصري (ت 813هـ)، وعز الدين بن جماعة (ت 819هـ)، وغيرهم (السخاوي، د.ت، ج2، ص37).

أما تلامذته فأكثر من أن يعدوا، من أشهرهم: شمس الدين السخاوي (ت 902هـ)، وبرهان الدين البقاعي (ت 885هـ)، والقاسم بن قطلوبغا (ت 879هـ)، وابن تغري بردي (ت 874هـ)، وابن الشحنة (ت890هـ)، وغيرهم الكثير (الزركلي، 1980، ج1، ص178).

المناصب التي تقلدها في حياته

تقلّد ابن حجر العديد من المناصب، فقد وُلِّيَ دار افتاء العدل سنة 811هـ، وظلَّ في منصبه هذا حتى وفاته (ابن تغري بردي، د.ت، ج2، ص20). كما تولى القضاء – بعد ممانعته لمراتٍ عدة – في أماكن مختلفة، ففي سنة 827هـ تولى منصب قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية بتفويضٍ من الملك الأشرف برسباي، وأُعفي منها في السنة ذاتها (عبد الستار الشيخ، 1992، 279)، ثم أُعيد إلى المنصب نفسه سنة 828هـ حتى سنة 833هـ (ابن تغري بردي، د.ت، ج2، ص20)، وظلّ يولَّى ويعفى من القضاء حتى أعفى نفسه سنة 852هـ، أي قبل وفاته بمدة (عبد المنعم، 1997، 144).

كما تولى مشيخة المدرسة البيبرسية ونظرها سنة 813هـ، وتولى أيضاً وظيفة الإشراف على خزانة الكتب بالمدرسة المحمودية، والإشراف عليها (عبد الستار الشيخ، 1992، ص224).

ومن المنصب التي تولاها كذلك: الخطابة في الجامع الأزهر سنة 819هـ، ثم تولى الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وغيرها من الأماكن التي تولى الخطبة فيها (السخاوي، د.ت، ج2، 38).

لكنه مال إلى التدريس أكثر، وأولى ذلك عناية خاصة، واشتغل به ولم يكن يصرفه عنه شيء حتى حين تولى القضاء، ولم يختص بتدريس علم من العلوم، وإنما كان يُدرِّس عدة فنون (عبد الستار الشيخ، 1992، ص254).

وفاته

قد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ يوم وفاته، على الرغم من اتفاقهم على السنة التي توفي فيها، فمنهم من ذكر إنه توفي في الثامن والعشرين من ذي الحجة (ابن فهد المكي، 1998، ص337)، فيما ذهب آخرون إلى جعلها يوم التاسع عشر منه (السخاوي، 1999، ج3، 1187)، في حين جعلها فريق ثالث في الثامن عشر من ذي الحجة (ابن أياس، 1972، ج2، ص268).

وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، فقد حضر دفنه السلطان المملوكي جقمق، والخليفة سليمان المستكفي، وعدد لا يحصى من العلماء والأمراء والقادة، فضلاً عن جمع غفير من الناس، قيل إنه بلغ خمسين ألف إنسان (السخاوي، 1999، ج3، 1187)، وقد صلى عليه تلميذه علم الدين البلقيني، ودفن بالقرافة في القاهرة (ابن أياس، 1972، ج2، ص269).

منهج وموارد كتاب إنباء الغمر في أبناء العمر

اتَّبع ابن حجر منهجاً مشابهاً للمنهج المتبع من قبل غيره من المؤرخين، وهو ترتيب الحوادث على السنين، مع ذكر وفيات الأعيان في أواخر كل سنة يذكرها.

يبدأ الكتاب من أحداث سنة 773هـ وهي سنة ولادته، وانتهى منه سنة 850هـ، وحافظ على ذات المنهج المتبع في كافة صفحات الكتاب، وقد زاد في منهجه في الجزء الأخير منه بإضافة الشهور والأيام لما يتناوله في بعض الأحداث التي يذكرها، ويبدو لنا إن ذلك بسبب إدراكه لتلك الحوادث وروايتها كشاهد عيان عليها، وليس كما تروى له، أو يجدها في بعض المصادر التي ينقل منها.

وقد ركّز اهتمامه في نقل تاريخه هذا على الديار المصرية بصورة أساسية، وأكثر من النقل فيها، ثم كان اهتمامه بالديار الشامية أيضاً، وينقل ما دار فيها من حوادث مهمة أيضاً. إلا أنه نقل بعض الأحداث في العراق والمغرب والحجاز واليمن، وحتى بعض أخبار فارس والهند ولو بشكل مختصر وقليل.

ومما تجدر الإشارة إليه إن ابن حجر ذكر مصادره في هذا الكتاب وصرّح بها فيقول: "وغالب ما أورد فيه ما شاهدته أو تلقفته ممن أرجع إليه أو وجدته بخط من أثق به من مشايخي ورفقتي كالتاريخ الكبير للشيخ ناصر الدين بن الفارت، ...، وكصارم الدين بن دقماق، ...، وللحافظ العلامة شهاب الدين أحمد بن علاء الدين بن

جحي الدمشقي، ...، والفاضل البارع المفنن تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ...، وغيرهم" (ابن حجر، 1998، ج1، ص4). هذا فضلاً عمّا نقله بنفسه كشاهد عيان ومعاصر للأحداث والأشخاص.

وقد ذكر ابن حجر حول الكتاب ما نصّه: "وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على ذيل تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقى الدين ابن رافع فإنها انتهت أيضاً إلى أوائل هذه السنة وعلى الله تعالى أعتمد" (ابن حجر، 1998، ج1، ص5).

المنهج التفسيري عند ابن حجر

لم يكن منهج التفسير الديني عند ابن حجر يقتصر على أحداثٍ معينة، بل شمل أنواعاً مختلفة من الأحداث تنوعت بين الأحداث العسكرية والطبيعية وغيرها من الأحداث، فكلُّ حدثٍ يتصل بشخصية معينة، وكل حدثٍ تاريخي أو طبيعي هو في الحقيقة يدخل عنده في دائرة الغيب والتفسير الديني، وسوف نقوم بجمع الأحداث ذات الطبيعة المتشابهة تحت موضوع واحد.

التفسير الديني للأحداث ذات الطابع العقائدي

تناول ابن حجر بعض الحوادث التأريخية وحاول تفسيرها تفسيراً دينياً بحتاً ومن بين هذه الحوادث ما ذكره حول ما حصل لفخر الدين بن مكانس وأخيه الوزير الذين أُهينا وصودرا ثم هربا، ويرجع السبب في ذلك إنه بسبب تصرفاتهما الظالمة بحق الناس، لكنه يُرجع السبب الأساس في إنه عمد قبل القبض عليه بقليل بما فعله – قبل القبض عليه بقليل – بحجاج بيت الله الحرام، حيث قال: "توجه بنفسه إلى بركة الحاج وأمر المقومين أن يحضروا أوراق مكس الجمال التي معهم ومن لم يحضر ورقه ألزم بإعادة المكس، فحصل بذلك للحجاج ضرر كبير، وهو أول من أحدث ذلك فعوجل" (ابن حجر، 1998، ج1، ص177).

مؤكداً كلامه هذا وما ذهب إليه بالقول: " وكان قبل ذلك بقليل بلغه أن بقيسارية جركس كثيراً من القماش بغير ختم فأغلقها في ليالي العيد ثمانية أيام ففاتهم الموسم وكثر دعاؤهم عليه" (ابن حجر، 1998، ج1، ص177). وفي ذلك إشارة إلى أنه يعطي التفسير الديني لبعض الأحداث أهمية خاصة نابع من كونه مؤمن بأن دعاء المظلوم لا يُرد.

وفي حادثة ضرب نائب الشام آقتمر الحنبلي الصالحي وملخصها: "أن بعض مماليكه قبضوا على امرأة أنكروا أمرها فاستغاثت وظن بعض العامة أنهم أرادوا بها الفساد فرجموهم فأدموا وجه أحدهم فشكوا إلى النائب فأمسك من وجد في ذلك المكان وأمر بقطع أيديهم فشفعوا فيهم فأمر بضربهم بالمقارع فضربوا، وغالبهم برئ فابتهلوا بالدعاء عليه فلم يقم إلا دون الشهر ومات" (ابن حجر، 1998، ج1، ص161).

وفي إشارة منه إلى أن دعاء هؤلاء القوم الذين ضربهم آقتمر دون أن يتأكد من ارتكابهم للفعل الموجب للضرب قد تسبب في وفاته، حسب رأي ابن حجر.

وفي أحداث سنة 780هـ ذكر المؤرخ ما حصل عند تجهيز الأشرف صاحب اليمن المحمل إلى مكة ومعه كسوة للكعبة، وما حدث أثناء ذلك من خروج أمير الركب المصري الذي حال بينهم وبين كسوة الكعبة حتى كاد يحدث بينهم قتل بسبب ذلك، فعلّق ابن حجر على هذه الحادثة بالقول: "وكادت أن تقع فتنة ثم خمدت بلطف الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج1، ص178). طبيعتها.

وذكر في أحداث 782هـ ما نصّه: "في أوائل هذه السنة وصل بريدي من حلب فأخبر أن شخصاً عبث بإمام جماعة وهو يصلي فانقلب وجه العابث وجه خنزير" (ابن حجر، 1998، ج1، ص210). ما يؤكد على منهجيته في تفسير بعض الأحداث ذات الصبغة الدينية بالتفسير الديني الذي ينحو في بعضها منحاً تفسيرياً غيبياً كما ذكر في مثل هذه الحادثة، على الرغم من استحالة وقوع مثل هذا الحدث.

وفي أحداث سنة 791هـ ذكر مقتل أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الشافعي الحلبي، وهو أحد العلماء المشتهرين في تلك المدة، وهو إن السلطان برقوق (ت 801هـ) سلطان المماليك آنذاك أمر بحمله إلى القاهرة بعد أن تغيّر عليه، وكان يشغل منصب قاضي حلب من قبل برقوق نفسه، فقتل في الطريق، وقد قال عنه إنه قتل ظلماً، لكنه نقل عن بدر الدين العيني (ت 855هـ) قوله بحقه: "قتل شر قتله. وكان ذلك أقل جزائه لأن الظاهر هو الذي جعله من أعيان الناس وولّاه القضاء من غير بذل ولا سعي، فجازاه بأن أفتى في حقه بما أفتى وقام في نصر أعدائه بما قام" (ابن حجر، 1998، ج1، ص382). ويؤكد ما نقله عنه بالقول: "فجازاه الله بالإهانة والذل والإخراج من وطنه بهيئة قطاع الطريق والرمي في البرية بغير غسل ولا كفن ولا صلاة" (ابن حجر، 1998، ج1، ص382). في إشارة واضحة إن الله سبحانه قد عاقبه على ما فعله بالسلطان الظاهر برقوق بعد أن حشد ضده.

وفي إشارة إلى حادثة وقعت لجمال الدين الرّيمي محمد بن عبدالله بن أبي بكر الحثيثي (ت 792هـ)، فقد ذكر إنه كان كثير الازدراء بالنووي (ت 676هـ)، فقال حول ذلك: "فرأيت لسانه في مرض موته وقد اندلع واسود فجاءت هرة فخطفته فكان ذلك آية للناظرين" (ابن حجر، 1998، ج1، ص382). ولا يعلق عليها ابن حجر وكأنه كان موافقاً لهذه الحادثة، في تلميحٍ واضح على كون الأمر هو عقاب إلهي معجّل للرّيمي على ما كان يحصل منه بحق النووي.

وفي حادثة مشابهة لهذه الحادثة، نقل ابن حجر ما حصل لمحمد بن موسى بن محمد بن سند بن تميم اللخمي الدمشقي (ت 792هـ) (ابن حجر، 1972، ج6، ص24) بأنه تغيّر حاله قبل موته، ونقل عن المؤرخ ابن حجي الحسباني (ت 816هـ) قوله: "وقرأت بخط ابن حجي أنه تغير في آخر عمره تغيراً شديداً، ونسي بعض القرآن، فكان يقال إن ذلك لكثرة وقيعته في الناس" (ابن حجر، 1998، ج1، ص410). وكما في الرواية السابقة لا يعلّق عليها وتركها كما نقلها في إشارة على إنه كان موافقاً لما نقله، وإن ذلك بسبب وقيعته بالناس، وكلامه عليهم غيبةً وبهتاناً.

وفي أحداث سنة 796هـ نقل ابن حجر حادثة وقعت عند خروج السلطان الظاهر برقوق لمحاربة بعض الخارجين عليه، فجاء أحد الأشخاص للسلطان "فذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً في المنام وأنه قال له: رح إلى برقوق وقل له إنك منصور بأمارة أنك تقرأ سورة الفاتحة على أصابعك العشرة عشر مرات عند الركوب ثم تقول "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" فصدَّق الأمارة وبكى وأمر للرأي بمال فلم يقبل منه إلا نذراً يسيراً" (ابن حجر، 1998، ج1، ص470).

إلا أنه لا يقبل هذه الرواية، وعلّق عليها قائلاً: "والذي يظهر لي كذب هذا الرأي، وكأنه بلغ الأمارة من بعض خواص السلطان المطلعين على سره، وإلا فلو كان صدقاً لكان قد انتصر، والواقع أنه لم يقع له قتال مع أحد" (ابن حجر، 1998، ج1، ص470). وهذا التعليق من التعليقات القليلة التي قام بها ابن حجر للرد على الروايات ذات الطابع التفسيري الديني، لأن في غالبها يكتفي بإيرادها دون التعليق، ويبدو لنا إن السبب في تعليقه على هذه الرواية هو لكون الشخص قد ثبت كذبه بالواقع كون الحرب المنشودة لم تقع في الأصل، لذا كان الشاهد على تكذيبها عدم وقوعها، فكان مضطراً للتعليق عليها.

كما ذكر كذلك ما حلّ بأحمد بن محمد بن طريف الشاوي شهاب الدين (ت 798هـ)، وكان يعمل كحالاً – طبيب عيون – بالمارستان ثم تنقل بالمناصب حتى ولي نظرها، إلا أنه طغى وتجبّر، "ما لم يبلغه أكابر القبط

فعوجل وتمرض واستمر إلى أن مات" (ابن حجر، 1998، ج1، ص514). ولم ينقل هذا الكلام عن أحد، بل يبدو من أسلوب نقله للخبر بأنه كان شاهداً على ما حدث له، فذكر ذلك ولم يعلّق وكأنه كان مؤمناً بأن ما حصل له جراء أفعاله.

وفي أحداث سنة 837هـ أورد ابن حجر قصة لشخص أراد النيل من البخاري وكتابه الصحيح فقال: "وفي أوائل شعبان قرئ البخاري في القلعة على العادة، وحضر شخص عجمي يقال له شمس الدين - محمد - الهروي ويقال له ابن الحلاج كهل من أبناء الأربعين ادعى أنه يعرف مائة وعشرين علماً، فأظهر بأواً عظيماً وشرع يسأل أسئلة مشكلة، وظهرت منه أمور تدل على إعجاب زائد فآل أمره إلى أن وقعت منه أمور أنكرت من جهة المعتقد، فزجر فخذل بعد ذلك وصار كآحاد الطلبة، واعتذر بعد ذلك أن بعض الناس أغراه بذلك ظناً منه أن ينقص من قدر كاتبه" (ابن حجر، 1998، ج1، ص515). وعلّق عليها بالقول: "فأبى الله ذلك وحاق المكر السيئ بأهله - ولله الحمد" (ابن حجر، 1998، ج1، ص515). مصوراً الأمر وكأن العناية الإلهية قد حفظت البخاري وصحيحه مما أُريد به، وكل ذلك قد تمَّ برعايته سبحانه، فيى اعتقاد غريب من مؤرخ كبير كابن حجر، وهذا راجع بالتأكيد لاعتقاده بأن البخاري وصحيحه محفوظ بأمر غيبي.

وفي أحداث سنة 841هـ ذكر حادثة هدم دير المغطس بعد أن أرادوا هدمه في وقت سابق ولم يتفق لهم ذلك، كون الناس كانت تجتمع حوله في يوم يعدّونه كالعيد ويسبون بعض الصحابة ومنهم خالد بن الوليد، ولكن هذا الدير هُدم في هذه السنة بسبب جكم بن عبدالله الظاهري – وهو ختن السلطان، فهدمه بأمر السلطان المملوكي برسباي (825هـ-841هـ)، وعلّق على ذلك بالقول: "فقيض الله في هذا الشهر هذا الرجل وهو جركسي قريب العهد بالإسلام لكن إسلامه قوي، ... إلى إن يسر الله في هذا الوقت هدمه - ولله الحمد" (ابن حجر، 1998، ج1، ص515). ونلاحظ هلى هذا النص عمق التفسير الديني الذي تبناه ابن حجر ليفسر بها مسألة هدم هذا الدير، فضلاً عن وجود العنصر الغيبي في هذه القصة.

التفسير الديني في الأحداث ذات الطابع السياسي

وغير بعيدٍ عن الطابع العقائدي للأحداث فسّر ابن حجر الأحداث ذات الطابع السياسي بنفس المنهج التفسيري لبعضها، فأضفى عليها طابعاً غيبياً، وتفسيراً دينياً يتناسب مع فكره الديني، ومن هذه التفسيرات نقل ابن حجر خبر زوال ملك بني مرين – حكام المغرب الأقصى – سنة 824هـ بالقول: "انقرض ملك بني مرين من فاس بقتل صاحبها أبي سعيد عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، قتله

مدبر مملكته عبد العزيز اللبابي وقتل إخوته وأولاده وأكابر البلد وأبطالها وشيوخها وكانت فتنة كبيرة، وأقام محمد بن أبي سعيد في المملكة واستبد هو بتدبير الأمور، ولم ينتظم من يومئذ لبني مرين أمر - فسبحان من لا يزول ملكه" (ابن حجر، 1998، ج3، ص251).

وعلّق على ذلك تعليقاً غيبياً يجعل من زوال الدولة أمراً حتمياً، والأمر في الحقيقة عين الصواب، فكل شيءٍ زائلٌ إلا وجهه الكريم، ولا دوام لشيءٍ أبداً، لكن جرت عادة المؤرخين ومنهجهم في مثل هذه الحوادث – زوال الدول – على وجه الخصوص بأن يعطوا أسباباً منطقية ويستعرضون زوالها بالأسباب الطبيعية، وما يقف خلف ذلك من أمور وأحداث سببت سقوطها، وما رافق ذلك من أحداث، وليس تفسيراً غيبياً وكأن الأمر تم بصورةٍ فجائية دون مقدمات طبيعية ساهمت وأثرت في عوامل سقوطها ونهايتها.

وحين ذكر حال مدينة فاس بعد سقوط المرينيين، ومحاولة بني الأحمر ملوك غرناطة السيطرة عليها بواسطة تنصيب أمراء من بني مرين ومساعدتهم في إعادة دولتهم، وحصول أحداث كثيرة، ووقوع صراعات كبيرة بين المتنافسين على ملك (فاس) وما تبقى من الدولة المرينية، أورد ثلاثة من الملوك في تلك المدة، فقال في ذلك: "فصار في مسافة مرحلتين ثلاثة ملوك ليس بأيديهم من المال إلا ما يؤخذ ظلماً، فتلاشى الحال وخربت الديار وقتلت الرجال، والحكم لله العلي الكبير" (ابن حجر، 1998، ج3، ص296). ونرى في نهاية النص أنه لا يخالف عادته في تفسير ذلك بالإشارة إلى الجانب الديني والتفسير الغيبي في محاولة منه لعزو ذلك إلى الأسباب الغيبية دون أن يخوض بتفاصيل الصراعات القائمة، وكيف وصل الحال بهم إلى أن يكون في مدينة واحدة ثلاثة ملوك متناحرين، دون أن يميل إلى التفسير الطبيعي للأحداث القائمة.

ثم إننا نراه بعد ما أورد ذلك بسطور قليلة يوكل أمره إلى الله تعالى بقوله: "والعلم عند الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج3، ص296). مؤكداً بذلك مذهبه في التفسير الديني والإيكال الغيبي للأحداث التاريخية التي يتناولها في كتابه، وكأن الأمر يخلو من الأسباب الطبيعية لسقوط الدولة وخرابها بهذه الصورة.

وفي أحداث سنة 827هـ ذكر ابن حجر إن السلطان الأشرف برسباي من كان في السجون جميعاً حتى أهل الجرائم (ابن حجر، 1998، ج3، ص328)، وقد علّق على لك بالقول: "ظناً أن في ذلك قربة، فالله المستعان" (ابن حجر، 1998، ج3، ص328). ويبدو من خلال تعليقه هذا إن أمر اطلاق هؤلاء – لاسيما المجرمين منهم – قد أوكل أمره إلى الغيب بناءً على قوله (ظناً منه) الذي يكاد ابن حجر لا يؤمن به، لكنه اكتفى بقوله هذا موكلاً أمره إلى التفسير الديني الذي تبناه السلطان المملوكي.

التفسير الديني في الأحداث ذات الطابع العسكري

وكان للأحداث ذات الطابع العسكري نصيب من التفسير الديني والغيبي عند ابن حجر، ففي تعليقه على الحرب التي دارت بين تيمورلنك (ت 807هـ) زعيم المغول وبين طقتمش خان ملك هرات وتركستان وقد انهزم جيش المغول في البداية إلا أن تيمورلنك تمسك برجل عابد في عسكره يسمى (بركة) فصاح في عسكر طقتمش خان فانهزموا. وقد علّق ابن حجر على ذلك بالقول: "ويحتمل أن يكون هذه من وضع بعض من يتعصب للنك ويحتمل الصحة ليقضي الأمر المقدور { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آل عمران: 178]" (ابن حجر، 1998، ج1، ص19).

وفي سياق حديثه عن تيمورلنك ذكر أحواله في الغزو للمشرق والمغرب، وكيف دمّر الدول التي كان يغزوها، فذكر واصفاً وضعه بالقول: "إذا بلغه عن مملكة كبيرة أو ملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها إلى أن يحصل مقصوده فيتركها بعد أن يخربها ويرجع، فعل ذلك بالشرق كله وبالهند وبالشام وبالروم إلى أن أهلكه الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج2، ص255). يُفهم من هذا النص إنه اعتبر موت تيمورلنك رحمة للناس مما كان يفعل، فإنه دمّر وأحرق وقتل كثيراً من الناس، فكان كأنه قد اعتبر موته رحمة من الله تعالى بعبادة، أو أن عبارة "إلى أن أهلكه الله تعالى" تشير إلى اعتقاد المؤرخ إن موته عقوبة له من الله تعالى لما أقدم عليه من جرائم فظيعة لا تغتفر.

وفي حديثه عن الأحداث التي حصلت سنة 806هـ بين عرب آل فضل وبين (دمشق خجا بن سالم الدوكاري التركماني) أحد أمراء المماليك في منطقة (جعبر) – قرب صفين – (الحموي، 1979، ج2، ص141) في شهر رمضان، وقتل فيها (دمشق خجا) وأرسل رأسه إلى القاهرة للسلطان المملوكي، فعلّق على ذلك بالقول: "وكان من المفسدين في الأرض كهفاً للصوص وقطاع الطريق فأراح الله البلاد والعباد منه برأفته ورحمته" (ابن حجر، 1998، ج2، ص267).

وعند حديثه عن وفاة تيمورلنك في أحداث سنة 807هـ وصفه بالقول: "وفيها مات الطاغية تمرلنك الخارجي في سابع عشر شعبان بعلة الإسهال القولنجي وله تسع وسبعون سنة وكان بصفه بطالاً – كان مشلولاً شللاً نصفياً - وقد أباد البلاد والعباد، وأكثر في الأرض الفساد" (ابن حجر، 1998، ج2، ص299). ثم إنه لا يكتفر بهذا الوصف فعلّق على موته بالقول: "هلك بالقولنج، وأراح الله منه" (ابن حجر، 1998، ج2، ص299). في إشارة تفسيرية ذات طابع ديني بالنظر لما فعله هذا السلطان بالعباد على حد تعبيره.

في مقابل ذلك أشار إلى مرض السلطان المملوكي الظاهر فرج بن الظاهر برقوق (801-815هـ) بالقول: "وفي أواخر هذه السنة وعك السلطان إلى أن أشرف على الموت ثم فرج الله تعالى عنه وتعافى" (ابن حجر، 1998، ج2، ص299). وهذه الصورة تثبت ميل المؤرخ ابن حجر إلى التفسير الديني لمثل هذه الأحداث التي جعل فيها الجانب الديني جانباً مهماً في تفسيره لبعض الأحداث التاريخية واصطباغها بالطابع الديني.

وغير بعيد عن تلك الحادثة تطرق ابن حجر إلى الحرب التي وقعت بين شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري – رابع ملوك المماليك الجراكسة – (815-824هـ) و(جكم) – وهو من كبار أمراء المماليك، في موقعة (الرستن) (ابن عبد الحق، 1412هـ، ج2، ص615) – التي انهزم فيها (شيخ) هزيمة منكرة، بعد الانتصارات التي حققها على العرب والمماليك الخارجين على السلطنة وتمكنه من هزيمتهم، إلا أنه انكسر في هذه المعركة على الرغم من كون جيشه أكبر بكثير من جيش (جكم)، فيشير إلى ذلك بالقول: "وكان جكم في هذه الوقعة في دون الألفين لكن النصر يؤتيه الله لمن يشاء" (ابن حجر، 1998، ج2، ص327). مؤكداً بذلك الجانب الغيبي في تفسيره للأحداث التاريخية.

وذكر ابن حجر حادثة قتل السلطان المملوكي الناصر فرج في أحداث سنة 815هـ حين تألب عليه بعض أمراء المماليك في حلب، وحين خرج إليهم ليقاتلهم تخلى عنه عسكره حتى قُبض عليه فسُجن في قلعة حلب، فدخل عليه بعض الأمراء فقتلوه، ولم يكتفوا بذلك وإنما تم سحبوه وألقوه في مزبلة، وفي ذلك قال: "ثم سحبه بعد ما سلبه فألقاه على مزبلة تحت السماء ليس عليه سوى لباسه وعيناه مفتوحتان، يمر به القريب والبعيد وقد صرف الله قلوبهم عنه فلا أحد يترقق له ولا يحن له بل ربما مد بعضهم يده فعبث بلحيته ثم حمل ...، ولم تكن له جنازة مشهودة فسبحان المعز المذل" (ابن حجر، 1998، ج2، ص510-511).

ونرى في تعليقه في نهاية القصة التي ذكرها ما يشير إلى التفسير الديني لحادثة مقتله، مؤكداً إن مقتله تم لما فعله في حياته من قتل وسفك للدماء، وإنه قُتل بسيف الشرع (ابن حجر، 1998، ج2، ص510). مؤكداً ذلك في تبريره لما فعله بالسلطان المملوكي بقوله: "ولقد كان الناصر هذا أعظم الناس خذلاناً لدين الإسلام وأشأمهم طلعة على المسلمين والعجب أنه ولد لما أقبل يلبغا الناصري ومنطاش فبشر أبوه فسماه بلغاق - يعني فتنة، فما خلص أبوه من الكرك سماه فرجاً فكان اسمه الأول هو الحقيقي" (ابن حجر، 1998، ج2، ص510-511).

وقد جعل ذلك مرتبطاً بالجانب الغيبي حتى في مسألة اختيار اسم السلطان حين وُلد، فكل شيء عنده في هذه الحادثة له ارتباط بالغيب، ولها أسس دينية تحاكي القصاص العادل الذي لابدّ وأن يصيب الإنسان جرّاء ما فعله خلال حياته، فإن كان خيراً جوزيَ بخير، وإن كان شراً جوزيَ بمثل فعله، وهذا التأويل الغيبي لحادثة مقتل الناصر فرج يمثل الأسس الدينية التي يعتقد بها ابن حجر بناءً على اعتقاده الديني الراسخ بمثل هذه الأمور.

وذكر ابن حجر إحدى الحملات الصليبية التي تعرضت لها الإسكندرية حيث تجمع عدد من الأمراء ومنهم صاحب قبرص الذي راسل بعض ملوك أوربا لغرض توجيه جيوشهم نحو مصر، فأرسلوا له جيشاً كبيراً في مراكب كثيرة هاجموا من خلالها مدينة الإسكندرية سنة 829هـ وخلال حرب استمرت أياماً، وحين ذكر ابن حجر انتصار المسلمين في إحدى المعارك علّق على ذلك بالقول: "فهزمهم الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج3، ص367). وهو ما يدل على تفسيره للانتصار تفسيراً دينياً بحتاً، ويبدو لنا إن ذلك بسبب كون الحرب بين المسلمين والفرنج الصليبيين مما أعطاها - في –ظر ابن حجر – بعداً دينياً شكّل البعد الغيبي منه الباعث الأمثل للانتصار كونها حرب عقيدة قبل أن تكون حرب سيطرة طرفٍ على آخر، وإن التفسير الديني لهذه الحرب هو من ألقى عليها هذه التبعية العقدية عنده.

واسترسل ابن حجر في ذكر تفاصيل هذه الحرب بين المماليك والصليبيين وذكر تفاصيلها، فإنه عرّج على ذكر ما جرى في أيام الحرب الأخيرة وإن اشتداد القتال وعزيمة المماليك ومعهم العرب قد منحهم النصر فقال في ذلك: "فحملوا حملة واحدة، فنصرهم الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج3، ص368). مؤكداً إن العامل الغيبي كان له الأثر الفاعل في تحقيق النصر على الصليبيين.

وأكد ذلك في محلٍ آخر وصف فيه استمرار مطاردة المماليك للفرنجة حين جاءتهم نجدة أخرى بمراكب كثيرة، فقاتلوهم في البحر هذه المرة، فهزمهم المماليك وأسروا أعداداً كبيرة منهم، لكنه علّق على ذلك بالقول: "وكفى الله المؤمنين القتال بهزيمة من في البحر من الفرنج" (ابن حجر، 1998، ج3، ص369). في إشارةٍ منه إلى استمرار منهجه في تفسير الأحداث تفسيراً دينياً بحتاً يمثل الجانب الغيبي فيه الركن الأساس من التفسير.

وفي إشارةٍ غيبية أخرى لهذه المعركة، ذكر ابن حجر ما نصّه: "أن أباه رمى بطرس هو الذي كان هجم على الإسكندرية في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين فقدر الله تعالى أن ولده جابوش يدخلها في صورة الأسير في

سلطنة الأشرف برسباي - ولله الحمد على جزيل هذه النعمة" (ابن حجر، 1998، ج3، ص371). وهي إشارة تؤكد منهج ابن حجر في التفسير الديني والغيبي لبعض الأحداث التاريخية.

كما أكد على إن النصر كان من عند الله سبحانه بقوله: "وفرح المؤمنون بنصر الله تعالى" (ابن حجر، 1998، ج3، ص371). وبيّن سبب تأكيده على إن النصر هو من عند الله تعالى بقوله: "وكان ذلك على غير القياس، فإن الجند الذين توجهوا إلى قبرس – قبرص - لم يكن لهم عادة بركوب البحر ولا بالقتال فيه فمن الله على المسلمين بلطفه ونصرهم" (ابن حجر، 1998، ج3، ص371). مؤكداً ما ذهبنا إليه في كونه يغلِّب الجانب الغيبي في تعامله مع الأحداث.

وفي سنة 844هـ ذكر المعركة التي قامت بين المماليك وبين جيش الفرنجة، إذ أراد الفرنجة مفاجئة المماليك إلا أنهم أدركوا ذلك فثبتوا لهم وهزموهم فعاد هؤلاء نحو مزارع القصب فقتلوا بعض المزارعين ونهبوا محاصيلهم وعادوا أدراجهم. وعلَّق ابن حجر على تلك الحادثة بالقول: "ونجوا بأنفسهم بعد أن قتل منهم نحو الأربعين وجرح جماعة، ولم يظفروا بما خرجوا بسببه - ولله الإرادة يفعل ما يشاء وينصر من يشاء" (ابن حجر، 1998، ج4، ص158). وواضح من تعليقه تمسكه بالجانب الغيبي في تفسيره لهذا الحدث المهم دون أن يعطي للأسباب الطبيعية أي أهمية، بل جعل كل ذلك مناطاً بإرادة الله عز وجل.

التفسير الديني في الأحداث ذات الطابع الاجتماعي

وكان للأحداث ذات الطابع الاجتماعي نصيبها أيضاً من التفسير الديني، فحين تحدّث عن بعض الشخصيات أشار في بعضها إلى الجانب الغيبي في حديثه عن بعضهم، ومثل ذلك ما ذكره بقوله عن عبدالله بن شيرين الهندي الحنفي (ت 809هـ) بقوله: "وكان يحدث عن الهند بعجائب الله أعلم بصحتها" (ابن حجر، 1998، ج2، ص368). وهو من خلال ردّه هذا يرجّح الجانب الغيبي فيما يرويه عن هذا العالم دون أن يذكر أو يعلّق على ما ذكره من أحاديث.

وفي حادثة غريبة رواها عن رجلين وُجدا محروقين فقال في ذلك ما نصّه: "اجتمع رجلان من العوام بدمشق فشربا الخمر فاصبحا محروقين ولم يوجد بينهما نار ولا اثر حريق في غير بدنهما وبعض ثيابهما، وقد مات أحدهما وفي الآخر رمق، فأقبل الناس أفواجاً لرؤيتهما والاعتبار بحالهما" (ابن حجر، 1998، ج2، ص459).

في إشارةٍ إلى إن ما جرى لهما هو إشارة غيبية، لأن شرب الخمر محرّم بالشريعة وثابت التحريم، وما حدث اقتضى أن يكون مناسباً لما اقترفاه.

وفي حادثة ذكرها في أحداث سنة 820هـ تتعلق بقيام أحد القضاة بالحكم على رجل نصراني بالرجم لأنه زنى بمسلمة، واعترف بذلك، وبعد الرجم قام بحرق جثة النصراني ودفن المرأة المسلمة (ابن حجر، 1998، ج3، ص141).

ويبدو من خلال ما نقله إنه كان غير مقتنع بما فعله القاضي، فقال في ذلك: "وعاب الناس على القاضي صنيعه هذا من عدة أوجه منها استبداده بذلك وإسراعه بالحكم ودعوى المرأة الإكراه ولم يقبل ذلك منها إلا ببينة فأحضرت واحداً ولم يؤخرها حتى تسمع الشهادة لكون النصراني أسلم لما تحقق الرجم وغير ذلك، ثم جاني المذكور وتنصل مما نقم عليه، فالله أعلم" (ابن حجر، 1998، ج3، ص141).

وعلى الرغم من عدم اقتناعه هذا، إلا أنه لا يعلّق بشءٍ عليه، وإنما يكتفي بقوله (الله أعلم) مؤثراً إدخال الموضوع برمّته في خانة التفسير الديني للأحداث.

وفي أحداث سنة 830هـ ذكر ابن حجر تعيين نجم الدين بن حجي (ت 816هـ) على قضاء الشام، فكان من هذا الأخير أن قرّب إليه شخصاً يدعى (أبو شامة) وكان هذا الشخص قد أحسن إلى ابن حجي فيما مضى فأراد أن يكافئه، ولكن أبو شامة كان متعسفاً ظالماً فجار الناس منه، فذكر ذلك بالقول: "واستعاذ كل مسلم من شره لجرأته على الأمور الفظيعة، فخشى عاقبة ذلك فتحوّل إلى القاهرة فسكنها مدة، ثم أخرج منها بعد لا بارك الله فيه" (ابن حجر، 1998، ج3، ص141). في إشارة منه إلى أنه ناقم عليه لما كان يفعله بالناس، وهو تفسير غيبي لكون دعائه عليه منطلق من ظلم هذا الرجل وتعسفه.

وفي أحداث سنة 832هـ ذكر قصة نور الدين علي بن محمد بن يوسف التوريزي وهو من كبار التجار آنذاك، أُتهم من قبل بعض المنافسين بأن ملك الحبشة أرسله إلى ملك الفرنجة ليستحثه على المسلمين، فنمَّ عليه عبد السلام الجبرتي للسلطان المملوكي فقبض عليه ورفع أمره إلى قاضي المالكية، وحين واجهه القاضي بالأمر أنكر ذلك، فشهد عليه صدر الدين بن العجمي (ت 833هـ) (ابن تغري بردي، د.ت، ج2، ص212) وآخرون، فحكم بقتله بشهادة هؤلاء، فضربت عنقه وهو يعلن بالشهادتين وقراءة القرآن ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام (ابن حجر، 1998، ج3، ص427). إلا إنه بعد مدة ليست بالقصيرة تبين للسلطان والقاضي إنه كان بريئاً، فأعاد السلطان المملوكي لأهله ما صادره من أمواله (ابن حجر، 1998، ج3،

ص427). وعلّق ابن حجر على هذه الحادثة بالقول: "ولم يتمتع من شهد عليه، بل لحق به بعد قليل كما سيأتي – والله أعلم بغيبه" (ابن حجر، 1998، ج3، ص427). في إشارة واضحة إلى العمق الغيبي الذي رآه ابن حجر في هذه الحادثة بناءً على ما شهدته الحادثة من ظلم لحق بالتوريزي من شهادة الزور التي شهدها عليه بعض منافسيه.

وذكر في أحداث سنة 838هـ إن سلطان المماليك الأشرف برسباي غضب من القضاة، فتحرك صالح البلقيني (ت 868هـ) في العودة، كما سعى القاضي شمس الدين بن القاضي زين الدين التفهني للمنصب كذلك لاسيما وأن أبيه كان قاضياً من قبل (ابن حجر، 1998، ج3، ص536). ثم علّق على هذا الأمر بالقول: "ولم ينبرم لواحد منهما أمر – والأمر بيد الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار" (ابن حجر، 1998، ج3، ص536). ونراه قد جعل أمر تسلم هذا المنصب من الأسباب الغيبية التي هي بيد الله سبحانه وله أن يجعلها فيمن يريده ويرتضيه، وهو بذلك يرد الأمر إلى الغيب.

وفي أحداث سنة 843هـ روى قصة مصادرة ناظر الجيش لدويداره – حامل دواة السلطان – (القلقشندي، د.ت، ج4، ص60) فباع الأخير كل ما يملك من بيوت وأثاث وثياب حتى يسدد ثمن ما طُلب منه، حتى ذكر ابن حجر ذلك بالقول: "وكثرت الأمتعة والملابس الفاخرة بأيدي الناس من كثرة من يبيع ذلك من حواشي المشار إليه (ابن حجر، 1998، ج4، ص132). وقد اكتفى بالتعليق على ذلك بالقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: 13]. وفي قوله هذا ما يدل على عمق تأثره بالتفسير الديني لهذا الحدث.

ثم ذكر حال أصحابه فقال: "ومن أعجب ما يذكر أن جميع منادميه صاروا ملازمين لكاتب السر طمعاً في استمرار جهاتهم وجاههم - والله {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19]. (ابن حجر، 1998، ج4، ص132). وهو ما لا يخرج عن فكرته ومنهجه الملازم في تضمين العنصر الغيبي الديني في تفسيره.

التفسير الديني في الأحداث الطبيعية

وظلَّ هذا المنهج ملازماً لابن حجر حتى في الأحداث الطبيعية، فالمنهج الذي اتبعه في تفسيره لبعض الأحداث لا يعطي في كثير من الأحيان الأسباب المنطقية أو الواقعية في تفسيرها، فكما هو معلوم إن الله سبحانه وتعالى يأخذ بالأسباب الطبيعية للأحداث، بل نراه يميل للتمسك بالتفسير الديني، ومن ذلك ما ذكره في أحداث سنة 790هـ وتفشي الطاعون في مصر تلك السنة، فكان انجلاء الطاعون – بحسب تفسير ابن حجر ما ذكره بقوله: "فندب القاضي برهان الدين بن الميلق جماعة لقراءة البخاري بالجامع الأزهر ودعوا الله عقب

ختمه برفع الوباء، ثم اجتمعوا يوم الجمعة بالجامع الحاكمي ففعلوا مثل ذلك، ثم اجتمعوا أكثر من عددهم الأول فاستغاثوا بالجامع الأزهر، وكان وقتاً عظيماً فارتفع الوباء في ثاني جمادى الآخرة بعد أن بلغ في كل يوم ثلاثمائة نفس" (ابن حجر، 1998، ج1، ص354).

وفي أحداث سنة 806هـ، ذكر ابن حجر حدوث زلزال عظيم خربت أماكن كثيرة من الجهة الغربية لمدينة القاهرة، تلاها زلازل في مدينة حلب أيضاً، وصفها بكونها واستمرت ساعة – على حد قوله – مؤكداً إن الناس التجأت للدعاء والعبادة والتوبة.

وفي هذا النص إشارة واضحة إلى أنه يفسر بعض الأحداث تفسيراً دينياً لاعتقاده إن بعض الأحداث لاسيما الطبيعية هي حدث لا يمكن تفسيره إلا وفق الطابع الديني، كونه متعلق بالطبيعة.

ويؤكد توجهه هذا في نصوص أخرى، ففي أحداث سنة 807هـ ذكر قائلاً: "وفيها في جمادى الأولى زلزلت مدينة حلب زلزلة عظيمة ففزع الناس لها ولجأوا إلى الله، فسكنت ثم عاودت مراراً ولم تفسد شيئاً ولله الحمد" (ابن حجر، 1998، ج2، ص296).

وأورد ابن حجر في أحداث سنة 826هـ هبوب ريح قوية تحمل تراباً أصفر، وصفها بالقول: "هبت ريح برقة تحمل تراباً أصفر إلى الحمرة، وذلك قبل غروب الشمس، فاحمر الأفق جداً بحيث صار من لا يدري السبب يظن أن بجواره حريقاً، وصارت البيوت كلها ملأى تراباً ناعماً جداً يدخل في الأنوف وفي جميع الأمتعة، ثم لما تكاملت غيبوبة الشفق أسود الأفق وعصفت الريح وكانت مقلقة، فلو قدر أنها كانت تصل إلى الأرض لكان أمراً مهولاً" (ابن حجر، 1998، ج3، ص301).

وحين أتى على تفسيرها اتخذ ذات المنهج الغيبي في تفسيره لبعض الظواهر الطبيعية، فقال: "وكثر ضجيج الناس في الأسواق والبيوت بالذكر والدعاء والاستغفار إلى أن لطف الله تعالى بادرار المطر، فتحولت الريح جنوبية باردة" (ابن حجر، 1998، ج3، ص301).

وفي أحداث سنة 831هـ ذكر ابن حجر غلاء السعر بسبب الظروف المناخية التي ألمَّت بالبلد آنذاك، فقال: "غلا السعر بسبب هبوب الريح المريسية، فمنعت المراكب من الوصول من الوجه البحري بالغلال، وعز وجود الخبز بالأسواق أياماً، ثم فرج الله وانحل السعر" (ابن حجر، 1998، ج3، ص399).

وذكر كذلك أمر السلطان المملوكي بمنع الخمر وإراقة ما يوجد منها، ومنع أيضاً الحشيش وأمر بإحراق ما وجدوه منه، ويبدو أن أماكن بيع الخمور والحشيش كانت تضمّن من قبل بعض الناس، بمعنى أنها كانت مضمونة من الدولة، إلا أن السلطان أبطلها جميعاً، وفي ذلك قال: "وكان في القاهرة وغيرها من الأعمال على ذلك ضمان وعليه إقطاعات لأناس" (ابن حجر، 1998، ج3، ص399). وعلّق ابن حجر على أمر إبطال هذه الأمور بقوله: "فبطل ذلك ولله الحمد" (ابن حجر، 1998، ج3، ص399). في إشارة لموافقته على ذلك على اعتبارات دينية كونها محرّمة في الدين.

وذكر ابن حجر قيام بعض أكابر أهل دمياط بالشكوى من ابن الملاح الكاتب النصراني الملكي كونه يتجاهر باللواط، فعقد له مجلس بحضرة السلطان، فلمى أُدعي عليه أنكر، فقامت البينة عليه بذلك، وحينما ثبت عليه الجرم بادر وأسلم وحُكم بإسلامه ولُقِّب محب الدين (ابن حجر، 1998، ج3، ص399-400).

وذكر بخصوص ذلك ما نصّه: "وشرط عليه الشافعي أنه متى ثبت عليه شيء مما وقع فيه أو وقع في حق أحد ممن قام عليه في ذلك رتب عليه مقتضاه، وتهدده في ذلك، فأذعن والتزم وتوجه إلى دمياط وحسنت سيرته بالنسبة لما كان أولاً" (ابن حجر، 1998، ج3، ص399). وعلّق ابن حجر على هذا بالقول: "والله أعلم بغيبه" (ابن حجر، 1998، ج3، ص399). في إشارة تفسيرية غيبية تعكس منهج ابن حجر في تفسير بعض الحوادث التاريخية منطلقاً من إيمانه بأن هذه الحوادث لا يمكن تفسيرها بالأمر الطبيعي، وإنما بالحدث الغيبي.

وفي أحداث سنة 837هـ ذكر ابن حجر إن الأسعار قد ارتفعت كثيراً نتيجة نقص المياه في نهر النيل، مما أدى إلى أن التجار قامت بتخزين الحبوب على الرغم من ارتفاع أسعارها، فقال: "وامتدت الأيدي إلى تحصيل الغلال إما للمؤنة وإما للتجارة فاشتد الخطب - ولله الأمر! ومع ذلك فلطف الله بأهل مصر لطفاً عظيماً كما سيأتي بيانه بحيث أن جميع من خزن القمح ندم على ذلك لعدم ارتفاع سعره في طول المدة" (ابن حجر، 1998، ج3، ص511). وفي ذلك إشارة إلى التفسير الغيبي لهذا الحدث الذي كان سيؤدي إلى استغلال الناس من قبل بعض التجار نتيجة جشعهم ومحاولتهم الاستفادة من مثل هذه الظروف على حساب الناس البسطاء، ويبدو إنه كان يرمي إلى القول بأن الله ردَّ كيدهم نتيجة لما فعلوه.

وعلى نفس هذه الحادثة ذكر حادثةً أخرى جرت في نفس السنة، وهي نقص نهر النيل فازدادت أسعار القمح، فعلّق على تلك الحالة بالقول: "ومع ذلك لطف الله تعالى بالمسلمين في هذه السنة المباركة لطفاً عظيماً بحيث

أن سعر القمح مع ارتفاعه قليلاً لم ينقطع الواصل منه، واستمر ذلك إلى أن جاء المغل الجديد وتناقص السعر" (ابن حجر، 1998، ج3، ص512). في تأكيد لنهجه في تفسير الأحداث المشابهة كلها بمنهج التفسير الغيبي الذي كان يستخدمه في مثل هذه الحوادث.

وفي أحداث سنة 839هـ ذكر ما نصّه: "صار الماء الذي في البرك وبقايا الخلجان جليداً، فجمع منه شيء كثير جداً بحيث صار أصحاب المزابل يجمعونه فيبيعونه، والناس يتسارعون إلى شرائه والتناول منه ويظنون أنه من جملة الثلج، وكثر ذلك جداً بحيث لم يسمع بنظير ذلك في هذه الأعصار" (ابن حجر، 1998، ج4، ص16). وعلّق عليه بالقول: "وكان الأمر في العام الماضي قبل هذه الأيام بالعكس من استمرار الحر وعدم البرد البتة - فسبحان من له الملك" (ابن حجر، 1998، ج4، ص16). وهنا نراه يعقد مقارنة بين ما صار في هذه السنة والسنة التي قبلها، حيث كان الحر مستمراً في نفس الوقت من السنة الماضية، لكنه في هذه السنة أصبح بارداً لدرجة سقوط الثلج. وهذا ما يحيله إلى أمور الغيب وتفسير ذلك بقدرة الله تعالى، في استمرار إيمانه بالتفسير الديني للأحداث.

الخاتمة وأهم الاستنتاجات

توصل البحث في نهايته إلى النتائج الآتية:

1- يُعدُّ ابن حجر من أبرز المؤرخين في القرن التاسع الهجري، ولم يقتصر نتاجه على التاريخ فقط، وإنما كان عالماً موسوعياً ترك مؤلفات كثيرة في أغلب العلوم كالفقه والحديث، واللغة، والتفسير، فضلاً عن التاريخ، وغيرها من العلوم.
2- فيما يخصُّ كتابه – موضوع البحث – (إنباء الغمر بأبناء العمر) فهو كتاب تاريخ حولي، لم يختلف عمّا سبقه من الكتب التاريخية من حيث المنهج المتبع في تأليفه، فقد اعتمد التاريخ الحولي – على السنين – في تدوين الأحداث التاريخية.
3- إن ما يميز هذا الكتاب إن ابن حجر كتب في أغلب حوادثه وهو شاهد عيان للأحداث التي ذكرها، فحمل بذلك مصداقية كبيرة على كتابه.

4- إنماز ابن حجر في كتابه – في العديد من الأحداث التاريخية التي ذكرها – بمنهج تفسير ديني غيبي لبعض منها، وهذا ناشئ من ثقافته الإسلامية التي نشأ عليها، فكان تبريره ذلك ينطلق من هذا الأساس.

5- برز هذا المنهج بشكل واضح في الأحداث الطبيعية التي ذكرها، فضلاً عن بعض الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية والطبيعية.

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- ابن إياس، محمد بن أحمد. (1972)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر .

3- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، (د.ت). المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

4- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. (1998). أنباء الغمر في أنباء العمر، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

5- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. (1972). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط2، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.

6- الحموي، ياقوت. (1979). معجم البلدان، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.

7- الزركلي، خير الدين. (1980). الأعلام. ط5، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان .

8- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. (د.ت)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان .

9- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. (1999)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، دار ابن حزم، بيروت – لبنان .

10- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (1967). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط1، دار إحياء التراث العربي – عيسى البابي وشركاه، مصر.

11- ابن عبد الحق، عبد المؤمن البغدادي، (1412هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجيل، بيروت – لبنان .

12- عبد الستار الشيخ، (1992)، ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث، ط1، دار القلم، دمشق – سوريا .

13- عبد المنعم، شاكر محمود، (1997)، ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان .

14- ابن فهد المكي، أبو الفضل تقي الدين ابن فهد المكيّ، (1998)، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

15- القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري، (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

16- كحالة، عمر، (د.ت)، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان .

17- ابن منظور، محمد بن مكرم، (1405هـ)، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم – إيران.

List of sources and references

1- The Holy Quran

2- Ibn Iyas, Muhammad bin Ahmed. (1972), Bada’i al-Zuhur fi Waqa’at al-Dahur, 2nd edition, The Egyptian General Book Organization, Cairo - Egypt.

3- Ibn Taghri Bardi, Abu al-Mahasin Yusuf bin Taghri Bardi, (Dr. T). Al-Manhal Al-Safi and Al-Mustawfi after Al-Wafi, Publisher: The Egyptian General Book Organization, Cairo.

4- Ibn Hajar, Ahmed bin Ali Al-Asqalani. (1998). News of immersion in the news of the age, publisher: Supreme Council for Islamic Affairs, Cairo.

5- Ibn Hajar, Ahmed bin Ali Al-Asqalani. (1972). The pearls are hidden in the notables of the eighth century, 2nd edition, publisher: The Ottoman Encyclopedia, Hyderabad, India.

6- Al-Hamwi, Yaqut. (1979). Countries Dictionary, Publisher: Arab Heritage Revival House, Beirut-Lebanon.

7- Al-Zarkali, Khair Al-Din. (1980). media. 5th Edition, Dar Al-Ilm for Millions, Beirut - Lebanon.

8- Al-Sakhawi, Shams Al-Din Muhammad bin Abdul-Rahman. (D.T), The Brilliant Light of the People of the Ninth Century, Dar Al-Hayat Library Publications, Beirut - Lebanon.

9- Al-Sakhawi, Shams Al-Din Muhammad bin Abdul-Rahman. (1999), Jewels and pearls in the translation of Sheikh Al-Islam Ibn Hajar, Dar Ibn Hazm, Beirut - Lebanon.

10- Al-Suyuti, Jalal al-Din Abd al-Rahman bin Abi Bakr, (1967). Hassan Lecture on the History of Egypt and Cairo, 1st Edition, Dar Revival of Arab Heritage - Issa Al-Babi and Partners, Egypt.

11- Ibn Abd al-Haq, Abd al-Mu'min al-Baghdadi, (1412 AH), Observatories of Seeing the Names of Places and Bekaa, 1st Edition, Dar Al-Jil, Beirut - Lebanon.

12- Abd al-Sattar al-Sheikh, (1992), Ibn Hajar al-Asqalani, Commander of the Faithful in Hadith, 1st edition, Dar al-Qalam, Damascus - Syria.

13- Abdel Moneim, Shaker Mahmoud, (1997), Ibn Hajar Al-Asqalani, his compilations and a study in his approach and resources in his book Al-Isabah, 1st Edition, Al-Risala Foundation, Beirut - Lebanon.

14- Ibn Fahd Al-Makki, Abu Al-Fadl Taqi Al-Din Ibn Fahd Al-Makki, (1998), The Note of Notes at the Tail of the Tabaqat Al-Hafiz, 1st Edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, Beirut - Lebanon.

15- Al-Qalqashandi, Ahmed bin Ali Al-Fazari, (D.T), Sobh Al-Asha in the creative industry, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut - Lebanon.

16- Kahaleh, Omar, (D.T), Authors' Dictionary, Dar Revival of Arab Heritage, Beirut - Lebanon.

17- Ibn Manzoor, Muhammad bin Makram, (1405 AH), Lisan Al-Arab, Hawza Literature Publishing, Qom - Iran.